بسم الله الرحمن الرحيم

محاضرة دينية

فضيلة الشيخ الدكتور محمد أحمد عبد الغني



بعنوان :

علم الكلام: ما حقيقته، وما موقف العلماء منه؟

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه وإخوانه إلى يوم الدين، أما بعد:

أيها الإخوة الأفاضل، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

في هذه المحاضرة نتناول حقيقة هذا العلم، ونشأته، وموقف الأئمة الأربعة منه، ونماذج من نقد العلماء له، وأبرز أوجه الاعتراض على مناهجه.

أولًا: تعريف علم الكلام وحقيقته

عرّف عضد الدين الإيجي علم الكلام بأنه: « عِلْم يقتدر به على إثبات العقائد الدينية بإيراد الحجج ودفع الشبه ». [1]وهذا الإيراد والدفع ليس على طريقة الرسول ﷺ بل على طريقة أهل اليونان.

وقال ابن تيمية :« إنما هو حقيقة عرفية فيمن يتكلم في الدين بغير طريقة المرسلين» [2] .

بمعنى : علم الكلام هو : ما أحدثه المتكلّمون في أصول الدين، من إثبات العقائد بالطرق التي ابتكروها، وأعرضوا بها عما جاء الكتاب والسنة به.

([1]) إسلام المتكلّمين: محمد بوهلال، دار الطّليعة للطّباعة والنّشر بيروت، ورابطة العقلانيين العرب، الطّبعة الأولى 2006، ص (14).

([2]) مجموع الفتاوى (461/12).

وسمي بعلم الكلام، لأنه قائم على كثرة الكلام والجدال والخوض فيما لا ينفع في مسائل العقيدة بعيداً عن النصوص الشرعية .

وقد انتقد عدد من العلماء مناهج معينة فيه؛ لما اشتملت عليه من مقدمات فلسفية وجدلية، ولما ترتب عليها أحيانًا من تأويل النصوص أو صرفها عن ظاهرها.

وليس المقصود بهذا النقد رفض العقل أو الاستدلال مطلقًا؛ فالإسلام يدعو إلى التفكر والنظر والاستدلال، وإنما محل الاعتراض هو المنهج الذي يجعل المقدمات الكلامية المتنازع فيها حاكمةً على نصوص الوحي، أو يحوّل مسائل العقيدة إلى جدل لا يثمر علمًا نافعًا.

ثانيًا: نشأة علم الكلام وتطوره

ظهرت في القرون الإسلامية الأولى خلافات في مسائل عقدية، مثل القدر، وحكم مرتكب الكبيرة، وصفات الله تعالى، ثم تطورت المناقشات مع ظهور فرق ومدارس فكرية متعددة.

ومن أبرز مراحل تطوره:

1. مرحلة البدايات :ظهور المناقشات العقدية والردود المتبادلة بين الفرق. وهي مرحلة قدامى المتكلمين، كواصل بن عطاء، وعمرو بن عبيد، وأبي الهذيل العلاف، وإبراهيم النظام، وغيرهم.فقد ظهروا في القرن الثاني الهجري في أعقاب ما جرى من حوارات في العقيدة.
2. مرحلة تشكّل المدارس :تطور المناهج الكلامية، ومن أبرزها منهج المعتزلة، ثم ظهور الكُلَّابيَّة [3] والأشاعرة معترك الْكَلام في مقابل المعتزلة، وتعد هذه المرحلة أكثر تطوراً، نظراً لوضع قواعد عِلْم الْكَلام ومقدماته التي يحتاج إليها الدارس مثل إثبات الجوهر – الفرد وغيره.
3. مرحلة التداخل مع الفلسفة :دخول مصطلحات ومقدمات منطقية وفلسفية إلى عدد من المؤلفات الكلامية، وازدياد امتزاج البحث العقدي بالبحث الفلسفي.

وهذا التقسيم إجمالي للتقريب، إذ تختلف تفاصيل النشأة والتطور باختلاف المدارس والعصور

([3]) ظهَر في أوَّلِ القرنِ الثَّالثِ الهِجريِّ عبدُ اللهِ بنُ سعيدٍ القطَّانُ البَصريُّ (ت 243هـ)، ويُقالُ له: ابنُ كُلَّابٍ؛ لأنَّه كان يجُرُّ الخُصومَ إلى نَفسِه بفَضلِ بيانِه كأنَّه كُلَّابٌ، ويُقالُ لأصحابِه: الكُلَّابيَّةُ، وقال ابنُ تيميَّةَ: (ابنُ كُلَّابٍ قولُه مشوبٌ بقولِ الجَهْميَّةِ، وهو مُركَّبٌ مِن قولِ أهلِ السُّنَّةِ وقولِ الجَهْميَّةِ) ايُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (12/ 366).

ثالثًا: موقف الأئمة الأربعة من علم الكلام

نُقل عن الأئمة الأربعة التشديد في ذم الجدل الكلامي الذي يفضي إلى الخصومة والاضطراب، ويصرف عن النصوص الشرعية وطريقة السلف.

الإمام أبو حنيفة :عَنْ نُوحٍ الْجَامِعِ قَالَ : قُلْتُ لِأَبِي حَنِيفَةَ مَا تَقُولُ فِيمَا أَحْدَثَ النَّاسُ مِنَ الْكَلَامِ فِي الْأَعْرَاضِ وَالْأَجْسَامِ؟ فَقَالَ : مقَالَاتُ الْفَلَاسِفَةِ، عَلَيْكَ بِالْأَثَرِ، وَطَرِيقَةِ السَّلَفِ، وَإِيَّاكَ وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ فَإِنَّهَا بِدْعَةٌ). [4]

الإمام مالك :عن أشهب بن عبد العزيز قال: «سمعت مالكًا يقول: " إِيَّاكُمْ وَالْبِدَعَ ، قِيلَ : يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ ، وَمَا الْبِدَعُ ؟ ، قَالَ : أَهْلُ الْبِدَعِ الَّذِينَ يَتَكَلَّمُونَ فِي أَسْمَاءِ اللَّهِ وَصِفَاتِهِ وَكَلَامِهِ وَعِلْمِهِ وَقُدْرَتِهِ ، وَلَا يَسْكُتُونَ عَمَّا سَكَتَ عَنْهُ الصَّحَابَةُ وَالتَّابِعُونَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ »[5].

الإمام الشافعي :قال الإمام الشَّافِعِيّ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: حكمي في أهل الْكَلام أن يضربوا بالجريد والنعال، ويُطاف بهم في العشائر والقبائل، ويقَالَ: هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة وأقبل عَلَى الْكَلام[6]. .

الإمام أحمد بن حنبل :شدّد في التحذير من الخصومات الكلامية، وحثّ على التمسك بالسنة والآثار.

قَالَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «لَا يُفْلِحُ صَاحِبُ كَلَامٍ أَبَدًا، وَلَا تَكَادُ تَرَى أَحَدًا نَظَرَ فِي الْكَلام إِلَّا وَفِي قَلْبِهِ دَغَلٌ» [7]

أن أهل أئمة أهل السنة ما زالوا يصنفون الكتب في ذم عِلْم الْكَلام، والإنكار على متعاطيه. وأجل كتاب أُلف في ذلك كتاب، " ذم الْكَلام وأهله" لشيخ الإسلام أبي إسماعيل الهروى، وهو مجلد كله مخرج بالأسانيد

---

(4) رواه الهروي في ذم الكلام (4/ 213-214)،(1015).وابو المظفر السمعاني في الانتصار (صون المنطق 66) . والاصبهاني في الحجة (1/115-116) وسيأتي برقم (233) ..

(5) ذم الكلام (ق – 173 – أ). وانظر هذه الآثار في الحجة في بيان المحجة لأبي القاسم الأصبهاني (1/104-106).

([6]) مناقب الشَّافِعِيّ للبيهقي (1/462) الانتقاء لابن عبد البر (134) حلية الأولياء لأبي نعيم (9/116)

(7) علقه ابن عبد البر (1797) ورواه ابن بطة (2/538- 540) وانظر تلبيس ابليس ص (83) وتحريم النظر في الكلام ص (41) .

رابعًا: رجوع بعض العلماء عن علم الكلام ونقدهم له

نُقلت عن عدد من العلماء الذين اشتغلوا بعلم الكلام عبارات تعبّر عن عدم رضاهم عن بعض مناهجه، ومن أشهر ما يُروى في هذا الباب:

إمام الحرمين الجويني.: قال أبو المعالي الجويني :(خليت أهل الإسلام وعلومهم وركبت البحر الخضم ، وغصت في الذي نهوا عنه ، والآن قد رجعت عن الكل إلى كلمة الحق عليكم بدين العجائز ، فإن لم يدركني الحق ببره فأموت على دين العجائز فالويل لابن الجويني). [8]

فخر الدين الرازي :وقد قال :(لَقَدْ تَأَمَّلْتُ الطُّرُقَ الْكَلامِيَّةَ، وَالْمَنَاهِجَ الفَلْسَفِيَّةَ، فَمَا رَأَيْتُهَا تَشْفِي عَلِيلاً، وَلا تُرْوِي غَلِيلاً، وَرَأَيْتُ أَقْرَبَ الطُّرُقِ طَرِيقَةَ القُرْآنِ، أَقْرَأُ فِي الإِثْبَاتِ: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى العَرْشِ اسْتَوَى﴾ [9]﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾[10]وَأَقْرَأُ فِي النَّفْيِ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [11]﴿وَلا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْما﴾ [12]وَمَنْ جَرَّبَ مِثْلَ تَجْرِبَتِي عَرَفَ مِثْلَ مَعْرِفَتِي»[13]

الآمدي :نُقلت عنه عبارات تعبّر عن عدم حصوله على الثمرة التي كان يرجوها من الاشتغال بالكلام.

وتُظهر هذه النقول أن بعض العلماء لم يجدوا في بعض المناهج الكلامية ما يحقق لهم الطمأنينة والغاية المطلوبة، فعادوا يؤكدون أهمية الرجوع إلى القرآن والسنة. غير أن الإنصاف يقتضي ألا نجعل هذه العبارات دليلًا على أن جميع هؤلاء العلماء تركوا كل مباحث الكلام أو تراجعوا عن جميع آرائهم؛ بل يُنظر في كل قول ضمن سياقه ومصدره.

ولا ريب ان سسب رجع العلماء عن علم الكلام هو معارضة عِلْم الْكَلام للشرع، وما جر عليهم من آثار سيئة ، ومنها : قلة ورع بعض الخائضين فيه وجرأتهم على الله تعالى وإلقاء الشكوك والشبهات وتفريق الأمة

([8]) أنظر : تلبس إبليس : جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (المتوفى: 597هـ) الناشر: دار الفكر للطباعة والنشر، بيرزت، لبنان الطبعة: الطبعة الأولى، 1421هـ/ 2001م (104) .و مجموع الفتاوى (11/5)

([9]) طه: 5

([10]) فَاطِر: 10

([11]) الشُّورَى:11

([12]) طهَ:110

([13]) انظر: مجموع الفتاوى لابن تيمية (72/4) . ودرء تعارض العقل والنقل (160/1).

الإسلامية، وشيوع ظاهرة التكفير، وتضييع المعنى الصحيح للتوحيد، وإفساد كثير من العلوم الشرعية ، وحيرة وندم المتكلمين.

خامسًا: نقد منهج المتكلمين ومقارنته بطريقة القرآن

يدور نقد عدد من العلماء للمناهج الكلامية حول ثلاثة أمور رئيسة:

1-التعقيد في الاستدلال

اعتمدت بعض المناهج على مقدمات منطقية وفلسفية دقيقة ومعقدة، قد يصعب على عامة الناس فهمها، وقد تفتح بابًا للجدل الطويل. أما القرآن فيخاطب العقول والقلوب، ويدعو إلى التأمل في الكون والنفس والخلق.قال تعالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ ۝ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾[14]

2-جعل المقدمات العقلية حاكمة على النصوص

اعترض العلماء على بعض الاتجاهات التي جعلت مقدمات عقلية مسبقة أساسًا لتأويل نصوص الصفات وغيرها. والمنهج الذي يؤكد عليه أهل الأثر هو الجمع بين النص الصحيح والعقل السليم، وفهم النصوص في ضوء اللغة والسياق، مع إثبات ما أثبته الله لنفسه من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل.

فالعقل الصريح لا يناقض النقل الصحيح، وإنما يقع الخلل حين تُجعل الآراء النظرية المتنازع فيها معيارًا لقبول النصوص أو ردها.

3- غلبة الجدل على الهداية والبيان

انشغل بعض المتكلمين بالردود والخصومات حتى غلب الجانب الجدلي على بيان العقيدة بأسلوب يقربها إلى القلوب والعقول. أما القرآن فيجمع بين إقامة الحجة، والتذكير بآيات الله، ودعوة الإنسان إلى معرفة ربه والاستعداد للآخرة.

قال تعالى: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ۝ خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ ۝ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ۝ إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ﴾[15] وقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ ... مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾[16]

([14]) الذاريات: 20-21

([15]) الطارق: 5-8

([16]) الحج: 73-74

ومن هنا، فإن الاعتراض ليس على العقل أو المناظرة النافعة في ذاتها، وإنما على الإفراط في الجدل، والتعقيد الذي لا تدعو إليه الحاجة، وتقديم المقدمات المتنازع فيها على دلالة الوحي.

خاتمة

يتبين مما سبق أن علم الكلام نشأ وتطور في سياق خلافات عقدية وفكرية، وأن عددًا من العلماء انتقدوا مناهجه، ولا سيما حين غلب عليها الجدل والتعقيد، أو أفضت إلى تأويل النصوص بناءً على مقدمات نظرية مسبقة.

والموقف المتوازن يقتضي التمسك بالقرآن والسنة، وفهمهما على الوجه الصحيح، واستعمال العقل السليم في التدبر والاستدلال، والتمييز بين الحجة النافعة والجدل المذموم، مع التثبت من النقول والأحكام التاريخية.

فالغاية من دراسة العقيدة ليست الانتصار في الخصومات، وإنما معرفة الله تعالى، وتحقيق الإيمان به، والاهتداء بوحيه، والعمل بما يرضيه.

والحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

الدكتور محمد عبد الغني